

الفئة المستهدفة: السنة الثانية/ تخصص: دراسات لغوية

مقياس: النقد الأدبي الحديث

الأعمال الموجهة (1)

جهود الشيخ حسين المرصفي النقدية من خلال كتابة الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية

لكل نهضة أدبية نهضة تماثلها وتصاحبها في دراسة الأدب ونقده، فقد كان من الطبيعي أن يظهر في تلك الفترة إلى جوار محمود سامي البارودي رائد الإحياء والبعث الشعري، وعبد الله فكري ومحمد عبده رائدا البعث النثري أستاذ وناقد يبعث علوم اللغة العربية وطرائق النقد الأدبي التقليدي عند العرب القدامى، وكان هذا الأستاذ الناقد متميزا في الأدب الحديث وتاريخه بصورة لم ينازعه فيها أحد من رجالات عصره على رسوخ أقدامهم وعلو مكانتهم، إذ كان له فيه نصيب المجاهدين. فمن هو هذا الناقد؟ ماهي أهم إسهاماته النقدية؟

يعدّ الشيخ أحمد حسين المرصفي من رواد تدريس الأدب وتاريخه، وكبار النقاد الذين كان لهم الأثر الواضح في تطويره، تلقى علومه بالأزهر عن رجاله إلى أن أصبح عالما من علمائه، ليتولى التدريس فيه حتى سنة 1288- يونيو 1871 م عندما نظمت نظارة علي باشا مبارك الثانية للمعارف المصرية دروسا علمية "محاضرات عامة" بالأنفثياتر، الذي كان يسمى دار العلوم بسراي درب الجماميز. وكان يحضر هذه الدروس طلبة المدارس العالية وفريق من طلبة الأزهر، كما كان يحضرها علي باشا مبارك نفسه ومعه طائفة من كبار طلبة الأزهر وديوان المعارف. ونظيرا لذكائه واجتهاده وتميزه وشهرته في نواح من العلم، عينوا له مترجما بعد اختياره لإلقاء محاضرتين في علوم الأدب في يومي الأحد والأربعاء من كل أسبوع، (وكان زمن المحاضرة الواحدة ساعة ونصف لهذه المادّة).

فكانت تلك المحاضرات هي التّواة لإنشاء مدرسة " دار العلوم" بناء على التماس من علي باشا مبارك بتاريخ: 30 يوليو 1872، ومن هذا التاريخ ترك الشيخ حسين المرصفي التدريس بالأزهر الشريف، ليكون أول أستاذ للأدب العربي وتاريخه بدار العلوم، جاعلا من تدريس الأدب والبلاغة العربية منهجا جديدا لم يجر على غراره من قبل، متبعا في ذلك الطريقة التحليلية في دراسته لآثار معاصريه، ونخص بالذكر معارضة البارودي لأشهر الشعراء مبديا إعجابه به في الشعر من ناحية، وبعبد الله فكري في النثر وذلك في كتابه الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية. ويقصد بشعر المعارضات تلك القصائد التي نسجها قائلوها على نسق قصائد مشهورة سابقة بعد عودتهم إلى ينابيع الشعر العربي الأولى وصفوة شعرائه، فنظّموا على موسيقاها، والتزموا موضوعها وبحرها وقافيتها، لأنّها نالت

إعجابهم من جمال نظمها وصورها الفنيّة، وعايشت تجاربهم الشعوريّة في مضمونها، كما أنّها دلّت على تقدير اللاحقين للقصائد المتقدّمة، وحرصهم على محاكاتها، واستلهاهم صورها والتّجديد فيها. وهذا النوع من الشّعْر كان متداولاً في الشّعْر الأندلسيّ على حدّ تعبير بعض النّقّاد وعرف ازدهارا في العصر الحديث، حمل رايته شعراء مدرسة الإحياء كالبارودي وشوقي الذي عدّ إمامها، فقصائده كانت بعثاً وإحياء لقصائد البحّري في الوصف، والمتنبّي وأبي تَمّام في الحماسة..، ومن أمثلة ذلك سينيّة شوقي التي عارض فيها قصيدة البحّري في وصف إيوان كسرى مطلعها قول البحّري:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يَدْنُسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبْسِ

ونجد شوقي يستهل سينيّته بشجونه وحنينه إلى مصر، ليبيكي ملاعب شبابه وعهود صباه وذلك في قوله:

اِخْتِلاَفُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي اذْكُرْ لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي

وفي عهد الخديوي إسماعيل تعلّم الشيخ حسين المرصفي القراءة والكتابة في مدرسة العميان والخرس التي أنشأها في مصر سنة 1870 ، وكانت هذه الأخيرة أول مدرسة يعرفها المصريون في تاريخ التعليم المصريّ، ليتلقّى فيها تعليمه على طريقة الجس باليد (بريل "Braille") -بحكم أنه كان ضريرا-، كما حرص على تعلّم اللغة الفرنسية على الطريقة نفسها، فأتقنها كتابة وقراءة وكلاماً، ليمارس بعدها تدريسه في هذه المدرسة، إلى جانب تدريسه للأدب العربي في دار العلوم.

وقد خلف الشيخ حسين المرصفي ثلاثة مؤلفات وهي: "رسالة الكلم الثمان" وهو كتاب يدخل في باب الاجتماع والسياسة يهدف إلى تربية الوجدان السياسي والوطني، إذ شرح فيه معاني الألفاظ السائرة على ألسن شباب عصره وهي: الوطن، الحرية، الأمّة، العدالة، الظلم، السياسة، التربية، الحكومة، ليعكس به تصوّره لفكرة الإصلاح الاجتماعيّ ونظم الحكم السّليمة التي يجب أن تحكم البلاد من خلالها. وكتاب "دليل المسترشد في فن الإنشاء" جاء في ثلاثة مجلدات تناول فيه مجموعة من المعارف والعلوم، من ذلك الفكر، الإنسان "تركيبه ووظائفه"، فنّ الخطابة، الأغراض، حسن الصنعة في صياغة العبارة، إتقان الكتابة، طبقات الكتاب والشعراء ونماذج من كتاباتهم وشعرهم..، وكتابه الخالد "الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية" الذي يقع في جزئين، وقد تضمّن هذان الأخيران المحاضرات التي ألقاها على طلبته في دار العلوم في السنوات الأولى من إنشائها في الأدب وروايته، كما شمل جميع العلوم اللغة العربية من نحو وصرف وعروض وبيان وبديع، ثمّ الأدب بفرعيه الشعر والنثر، ليعدّ بذلك هذا الكتاب أداة من أدوات تعلّم اللغة العربية وآدابها ووسيلة لإنشاء الشعر والنثر في عصره، وفي الجيل الذي تلاه. قدّم فيه زادا ثقافيا متكاملا يتكفّل بتجنيب دارسه الخطأ في استعمال اللغة والوصول به إلى القدرة على إنشاء القول

البليغ، بعيدا كل البعد عن الزخرفة الواهية التي آل إليها الأدب العربي في عصوره الأخيرة.

منهج حسين المرصفي:

يعتبر حسين المرصفي صاحب الخطوة الجدّية الأولى على طريق تجديد النّقد الأدبيّ ومن رواد البعث الأدبيّ ومن بناته الأصليين وذلك في كتابه " الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية "1879"، الذي عرض فيه علوم العربية عرضا جيدا وبخاصة ما يتعلّق بعلوم البلاغة مبينا كلّ منها في نقد الكلام، راسما بذلك منهاجا لمعاصريه في سبيل تجويد إنتاجهم الشعريّ والثريّ والسّموّ به إلى مرتبة الأدب العربيّ القديم، فهو يرى أنّ السبيل إلى التفوّق الأدبيّ والفنّيّ هو احترام الأفكار الشائعة، معلنا رفضه تعريف النقاد القدامى للشعر بأنّه الكلام الموزون المقفى بقوله: "ليس هو الشعر الذي نحن بصدد دراسته، فنقول: إنّ الشعر هو الكلام البليغ المبنيّ على الاستعارة والأوصاف بأجزاء متفقة في الوزن والرويّ، كلّ جزء منها في غرضه ومقصده عن الآخر".

فإحياء اللغة عند المرصفي لا تقتصر على الشّكل والقالب فحسب، بل على الفرد أن يساير العصر، وهو أهمّ شرط نادى به زعماء البعث والإحياء، وهي نظرة تعيد إلى الصورة البيانيّة قيمتها ودورها بعد أن تحوّلت في نظر المتأخّرين وفي أشعارهم إلى حليّ فارغة وطلاء خارجيّ زائف ومنه جرى ضرورة:

- اكتساب الموهبة وعدم الاقتصار على تقليد مفرغ من روحه.
- حفظ شدة الشعر أكثر ما يستطيعون من الشعر الجزل القديم حتى تحصل الملكة، على أن ينسوا ما حفظوه حتّى لا يظّلوا عبيدا له، وينقلب شعرهم إلى ترقيع على جدّ تعبيره.
- الدربة: بعد حصول الملكة لا بدّ من الدربة الطويلة على النظم والإكثار حتى تستحكم الملكة، " فالذي لا شكّ فيه أنّ الكتابة عامّة والشعر خاصّة صناعة يجب أن يحذقها صاحبها بطول المران قبل أن يجرؤ عليها.

ويمكننا تلخيص شروط صناعة الشعر عند المرصفي التي ذكرناها في قوله: " اعلم أنّ لِعَمَلِ الشّعر وإحكام صناعته شروطا؛ أولها: الحفظ من جنسه، من جنس شعر العرب حتّى تنشأ في النّفس ملكة ينسج على منوالها..، ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر ورديء، ولا يعطيه الرّونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ، فمن قلّ حفظه أو عدم، لم يكن له شعر، إنّما هو نظم ساقط، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ، ثمّ بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، بالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ، فالشعر لا تنمو ملكته في النفس إلا بكثرة مطالعة الجيّد منه وحفظه كلّما استطاع الشباب إلى ذلك سبيلا".

الأسس النقدية عند المرصفي:

عمود الشعر: إنَّ المقياس العام للشعر عند المرصفي هو ما نقله عن ابن خلدون في مقدّمته، فارتضاه وبنى عليه نقده ويتلخّص في: " صحّة المعنى وشرفه، تخيّر اللفظ بخلوّه من التنافر والغرابية، وبمناسبته لموضوعه، وجودة التركيب بسلامته من الغموض والحشو، متانة السياق وحسن الاستعارة، ولطف الإشارة وغرابية النادرة، والبعد عن الزخرفة بالمحسنات، وعدم القصد للنكات"، وليجود الشاعر بالأحسن انطلاقاً مما ذكره: الاعتماد على الكلام الفصيح في النظم، البعيد عن التعقيد والتعمية، واجتناب المبتذل والحوشي من الألفاظ، وهذا يعكس تمسك المرصفي بالأراء النقدية القديمة متتبعا نهج الأمدي وغيره من النقاد الذين تحدّثوا هم بدورهم عن عمود الشعر ومقاييسه التي التزم بها الشعراء المحافظون.

طبقات الشعراء: وضع المرصفي كلّ شاعر في قالب خاص به- يعني به الطبقات- ، ويظهر ذلك في قوله: " وينبغي بحسب نشأة الشعر وما عرض له من التفسير أن نجعل الشعراء في ثلاث طبقات: الطبقة الأولى: للعرب الجاهليين والإسلاميين من المهلهل إلى بشار بن برد. الطبقة الثانية: للمحدثين الذين كانوا يحرصون على موافقة العرب ويجتهدون في سلوك طرائقهم، من أبي نواس إلى من قبل القاضي الفاضل. الطبقة الثالثة: بالشعراء الذين غلب عليهم استعمال النكات والإفراط في مراعاة البديع، وهم من القاضي الفاضل إلى هذا الوقت".

الموازنات: اتبع المرصفي في موازناته منهج النقاد القدامى أمثال الأمدي والجرجاني؛ إذ اشترط المرصفي في الموازنة أن تكون بين شاعرين متعاصرين ومن طبقة واحدة، وذلك في قوله: وإّما يوازن بين شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته وأهل عصره، ومن في مضماره، وفي منزلته، ومعرفة أجناس الكلام، والوقوف على أسرارها، والوقوف على مقداره..". إلا أنّ ما أخذ على المرصفي عدم التزامه بشروط الموازنة، وذلك بموازنته بين شعر البارودي وغيره من الشعراء القدامى في معارضته لهم وفضله عليهم.

المراجع:

- 1- محمد عبد الغني حسين: أعلام من الشرق والغرب.
- 2- محمود مندور: النقد والنقاد المعاصرون.
- 3- عبد الحكيم راضي: النقد الإحيائي والتجديد في الشعر.
- 4- المرصفي: الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية ج2.
- 5- حسن كامل الصيرفي: ديوان البحتري، ج2.
- 6- زكي مبارك: أحمد شوقي.